جارجنتوا وبانتاجرويل لفرانسوا رابليه

بقلم
الدكتورة كوثر عبد السلام

منهج البحث : حياة فرانسوا رابليه – مؤلفاته – فرانسوارابليه الفنان – فرانسوا رابليه وعلم التربية الحديث – الآراء الدينية لفرانسوا رابليه مع مقتطفات مترجمة من مؤلفاته – لماذا تعتبر مؤلفاته من تراث الإنسانية .

حياة فرانسوا رابليه :

لم يتمكن الباحثون حتى يومنا هذا من تحديد السنة التى ولد فيها فرانسوا رابليه ، إلا أنهم يرجحون أنه ولد سنة ١٤٩٤ . وفرنسوا هو الابن الثالث لأنطوان رابليه . وقد ولد فى ضيعة أبيه فى الدفينيين بالقرب من مدينة شينوف . وتضم مؤلفات رابليه الكثير من الذكريات عن هذه الضيعة وهذه المنطقة .

ولقد كانت رغبة أبيه هى أن يكرسه لحياة الرهبنة . ولذا فقد بدأ فرانسوا دراسته الأولى فى دير سويى وأتمها فى دير « لابوميت » بالقرب من مدينة أنجيه . ولما بلغ السادسة عشرة من عمره التحق بدير الكوردلييه فى فونتنيه – لو – كونت ، حيث رسم قسيساً .

وفى هذا الدير لم تلبث أن تكونت جماعة من عشاق البحث العلمى كان على رأسها فرانسوا رابليه الذى أحب دراسة اللغات القديمة والتعمق فيها لاسيما اليونانية . وكان لرابليه الكثير من الأصدقاء من الكبراء كانوا يتولون حمايته من حقد رؤسائه وبطشهم . وعلى رأس هؤلاء الأصدقاء الحماة جوفروا ديستيساك الذى كان يمده بما يحتاج إليه من كتب وأسفار فى أبحاثه ويحيطه بالرعاية حتى نهاية حياته .

ومنذ تلك الفترة المبكرة من الحياة العلمية لفرانسوا رابليه بدأ من حوله يدركون أنه أوسع الإخوان الفرنسسكان علماً ، ولذا فقد توجس منه رؤساؤه خيفة واستشعروا الخطر من ناحيته فبدأوا يشنون عليه حرباً شعواء منذ حوالى سنة ١٥٢٣ ، ولكنه كان يتغلب على كيدهم له بمعاونة أصدقائه الذين تعهدوا بحمايته . وبفضل جوفروا ديستيساك سمح البابا لفرانسوا رابليه بأن يلتحق بكنيسة سان نبرا وأن يصبح سكرتيراً لأسقفها . وكان رابليه فى هذه الفترة يوالى قراءاته المفضلة إلى نفسه ، ويقوم فى الوقت نفسه بأداء واجباته الدينية كتلاوة القداس والوعظ والإرشاد .

ولن يلبث رابليه أن يمر فى حياته بفترة مضطربة مالت فيها نفسه مع ميوله العلمية على حساب التزاماته

الدينية . فلقد بدأ يدرس الطب محققاً بذلك رغبة كان يكنها فى أعماقه من زمن طويل ، وحصل من جامعة مونبلييه على درجات علمية ثلاث فى الطب كانت آخرها هى الدكتوراه سنة ١٥٣٧ . وبدأ فعلا يمارس مهنة الطب فى مدينة ليون . وفى سنة ١٥٣٤ قام بأول رحلة له إلى روما لا كقسيس ولكن كطبيب . وكانت تلك مناسبة ثمينة بالنسبة له إذ أتيح له حضور جميع استقبالات البابا ، كما تمكن من التغلغل فى حياة تلك المدينة والاعتياد عليها ، وبعد عدة أشهر عاد إلى فرنسا . ويعتقد النقاد أنه ألف كتابه « جارجانتوا » بعد عودته من روما ، وربما كان ذلك فى شهر أكتوبر سنة ١٥٣٤ .

ولقد كان للحماس الذى ظهر فى كتابه هذا ضد جمود العصور الوسطى وما نشره فيه من نظريات تربوية وسياسية جديدة أثره فى أن ينظر إليه المجتمع بعين الريبة والشك . ولذا فقد آثر رابليه الاختفاء من الحياة العامة بعض الوقت . وفى سنة ١٥٣٥ سافر إلى روما للمرة الثانية وانتهز فرصة وجوده فيها فطلب من البابا أن يصفح عنه بسبب انفصاله عن البندكتان ، كما تمكن من الحصول منه على إذن بالالتحاق بدير سان مور الذى لم يلبث أن أصبح مدنيا خارجاً عن نطاق الكنيسة . وهكذا ألفى رابليه نفسه وقد تحرر من التزاماته كراهب ، واستمر يمارس مهنة الطب فى ثياب غير كهنوتية . ثم عاد إلى مونبلييه للحصول على الدكتوراه فى الطب سنة ١٥٣٧ كما أسلفنا . وبعد ذلك أخذ يقوم برحلات فى وسط وجنوب فرنسا القصد منها الاختفاء عن الأعين حتى لا يضطهد بسبب مؤلفاته . وفى سنة ١٥٤٠ تولى جيللوم دى بيلليه حمايته ، ثم تولاها بعد وفاة هذا الأخير شقيقه رنيه دى بيلليه . وفى سنة ١٥٤٣ استطاع رابليه أن يحصل من الملك على بعض الامتيازات « لاعادة نشر كتبه ومؤلفاته » ولم يلبث أن نشر كتابه الثالث .

وحينما مات فرانسوا الأول غادر الكاردينال دى بلليه البلاد ، لأنه كان من المقربين إلى هذا الملك ، وذهب للإقامة فى روما حيث تبعه صديقه الوفى رابليه ، إلا أنه كان يعود إلى فرنسا من حين لآخر . وفى سنة ١٥٥١ أصبح ، بفضل جان دى بلليه ، راعياً لأبروشية مودون . وكان رابليه يحصل على الغلة المادية لهذه الأبروشية دون أن يقيم فيها ، بل كان يقيم فى سان مور بجوار صديقه وحاميه الكاردينال دى بلليه . وانتهى من كتابة مؤلفه الرابع الذى نشر سنة ١٥٥٢ . ولكن البرلمان لم يلبث أن أمر بإيقافه . ومنذ ذلك العهد فقد الناس كل أثر لفرانسوا رابليه الذى ربما يكون قد توفى سنة ١٥٥٣ أو فى بداية سنة ١٥٥٤ ، وظهر مؤلفه الخامس بعد وفاته فيما بين عامى ١٥٦٢ و١٥٦٤ وما تزال نسبته لرابليه من الأمور المشكوك فيها .

مؤلفات فرانسوا رابليه :

وهكذا نرى أن فرانسوا رابليه قد خلف للإنسانية خمسة مؤلفات :

١ – بانتا جرويل :

وأول هذه المؤلفات الخمسة هو « بانتا جرويل » الذى نشر سنة ١٥٣٢ تحت اسم مستعار هو الكوفريباس نازييه . وقبل نشر هذا الكتاب كان قد ظهر فى مدينة ليون كتاب غفل من ذكر اسم مؤلفه يحكى قصة مغامرات العملاق جارجانتوا . وحظى هذا الكتاب بنجاح كبير فى الأوساط الشعبية . وأراد رابليه أن يستفيد من نجاح هذا الكتاب مجهول المؤلف ، وأن يمارس هذا النوع نفسه من كتب المغامرات فنشر مؤلفه الأول هذا « بانتاجرويل » . إلا أن الفرق كان شاسعاً بين هدف المؤلف الشعبى الذى لم يكن يقصد

إلا إلى تسلية الطبقات الشعبية من القراء وهدف رابليه الذى أراد أن يجمع بين تسلية القراء بما فى جعبته الواسعة من دعابات استقاها من قراءاته الكثيرة وبين إفادتهم بالكثير من التفاصيل عن الحياة الواقعية .

وفى هذا الكتاب يتخيل رابليه أسرة من العمالقة حجماً وعقلا يفكرون بطريقة مختلفة عن طريقة الناس فى العصور الوسطى . وبانتاجرويل هو ابن جارجانتوا . ويأخذ رابليه فى سرد مغامرات هـذا العملاق ليبدو فى ظاهر الأمر أنه يسلى قراءه كما فعل الكاتب الشعبى الذى سبقه ، إلا أن جو العمالقة هذا لم يكن فى الواقع إلا غطاء لما يريد التعبير عنه من أفكار جديدة مخالفة أو مناقضة لأفكار الكنيسة والجامعة فى ذلك الوقت . ولقد كان كبار الكتاب والمفكرين يتفننون دائماً فى خلق الوسائل التمويهية تلك ليتمكنوا من نشر آرائهم وهم فى مأمن من بطش أصحاب السلطة وأولى الأمر كما فعل لافونتين فيما بعد حين اتخذ من دنيا الحيوان فى أقصاصيه ستاراً يحتمى به ضد بطش أصحاب السلطة . ونلاحظ أن بعض فصول كتاب « بانتاجرويل » تبتعد بعداً تاماً عن جو الدعابات الشعبية وتنشر الأفكار الإنسانية السامية التى حارب بها رابليه جمود العصور الوسطى لا سيما الفصول التى ينتقد فيها « روتين » العلوم القضائية والتى يدافع فيها عن الانجيلية .

٢ ـ جار جانتوا :

نشر رابليه كتابه الثانى « جارجانتوا » سنة ١٥٣٤ . وكما ذكرنا فيما سبق فقد ظهر هذا الكتاب إثر عودته من رحلته الأولى إلى إيطاليا . وبما أن جارجانتوا هو أبو بانتاجرويل فقد أصبح هذا الكتاب هو الأول بالنسبة للملحمة العمالقة هذه ، بينما اعتبر بانتاجرويل هو الكتاب الثانى .

وخطة هذا الكتاب هى :

(ا) طفولة جارجنتوا ودراسـته ـ صولاته وجولاته فى الحرب ـ مكافأته للمنتصرين بإنشاء كاتدرائية تيليم .

(ب) إذا تركنا جانباً جو العمالقة المفتعل هذا نجد أن الكتاب يصف الحياة الواقعية فى المنطقة التى عاش فيها رابليه وما تقوم عليه من تقاليد وعادات بكل دقة وأمانة ولذا فتعتبر هذه الفصول مرجعاً تاريخياً لحياة الفرنسيين فى هذه الفترة . وهذا الكتاب خاص بالذكريات الشخصية لفرانسوا رابليه نفسه .

(ج) فى هذا الكتاب يذكر رابليه رأيه فى صراحة تامة حول بعض المشكلات العامة كمشكلة التعليم والحرب والفتوحات ، ويهاجم علماء اللاهوت فى السوربون ويهاجم كذلك الرهبان الذين يركنون إلى الكسل والترف ويسدد ضرباته إلى الخرافات الدينية والشعوذة . ومن أهم مميزات هذا الكتاب أن بعض فصوله تحمل دعوة صريحة من المؤلف نحو العودة إلى تعاليم الإنجيليل الخالصة وحدها والبعد عن تفسيرات علماء اللاهوت وإضافاتهم الخاطئة .

٣ ـ الكتاب الثالث :

ظهر هذا الكتاب سنة ١٥٤٦ . ومما يثير الانتباه أنه خلو من أى هجوم على الكنيسة أو الجامعة أو الحكومة ؟ ترى ما السبب فى ذلك ؟ هل تخلى رابليه عن حماسه وعن سياسته ؟ لقد كان ثمة عاملان حملا رابليه على العدول عن سياسته الهجومية السابقة ، أو على الأقل على التخفيف من حدتها . وأول هذين العاملين أن الملك كان قد أباح سنة ١٥٣٤ للسوربون حرية التصرف ضد كل من يهاجم المعتقدات والأفكار القائمة ، ولذا فقد غادر رابليه مدينة ليون فى فبراير سنة ١٥٣٥ من

باب الاحتياط . وثانى هذين العاملين أن رابليه كان راغباً فى التقرب إلى الملك وكسب وده .

وكان رابليه قد سئم موضوعات العمالقة جارجانتوا وبانتاجرويل فجعل بطل هذا الكتاب : بانورج . وخطة الكتاب الثالث هى نفسها خطة الكتابين السابقين فهو يدرس الموضوعات الاجتماعية والعلمية والسياسية فى قالب من قصص المغامرات . ومن أهم موضوعات هذا الكتاب موضوع الزواج . ويبحث بانورج موضوع الزواج فيقول لنفسه : « تزوج إذن » . ثم يعود فيبحث مضاره فيقول لنفسه : « لا تتزوج إذن أبداً . » ويأخذ فى تأمل النجوم وتفسير الأحلام واستشارة العرافات والمنجمين والأطباء فلا يدله أحد من هؤلاء إلى رأى حاسم فى هذا الموضوع أو يهديه إلى طريق يضمن له الوصول إلى السعادة . وتدور كل هذه المداولات والاستشارات فى جو كوميدى سوف يستلهم منه موليير فيما بعد بعض مواقف تمثيلياته الكوميدية . ويقطع بانتاجرويل ، الذى يقوم فى هذا الكتاب بدور بعيد عن دور العمالقة كما رأيناه فى الكتابين السابقين ، يقطع الموضوع بأن يندد بالزواج الذى يتم دون رأى الوالدين ، ويخضع خضوعاً تاماً فى هذا الموضوع لرأى والده .

ورغم الاحتياطات التى اتخذها رابليه فى هذا الكتاب للتخفيف من حدة هجومه على الكنيسة والجامعة فقد صودر الكتاب كسابقيه واضطر المؤلف إلى الاختفاء فى مدينة متز فى مارس سنة ١٥٤٦ .

٤ ـ الكتاب الرابع :

فى سنة ١٥٤٨ نشر رابليه أجزاء من الكتاب الرابع عبارة عن أحد عشر فصلا تتسم بالتروى والبعد عن كل هجوم ضد علماء اللاهوت . وفى سنة ١٥٥٠ حصل من الملك على حق إعادة طبع مؤلفاته وأخذ للأمر أهبته وبدأ العمل . إلا أنه فيما بين عامى ١٥٥١ و١٥٥٢ اشتد التنافس على السلطة بين البابا يوليوس الثالث والملك هنرى الثانى . وأراد رابليه أن ينتهز هذه الفرصة ويهاجم البابوية مختفياً وراء وسائل التعمية المكشوفة التى كان يتفنن فى خلقها ، إلا أن تلميحاته كانت تتجه رأساً ضد أطماع البابوات الدنيوية . وقد حدث هذا لسوء الحظ فى وقت تم فيه الصلح بين البابا والملك . وهكذا أصدر البرلمان أمراً بمنع تداول هذا الكتاب كما منع من قبل الكتب الثلاثة السابقة .

٥ ـ الكتاب الخامس :

ظهر هذا الكتاب سنة ١٥٦٤ بعد موت رابليه بعدة سنوات وكما أسلفنا ما زال النقاد يشكون حتى الآن فى نسبة هذا الكتاب للمؤلف لأن أسلوبه وطريقته فى سرد الأحداث تختلف تماماً عن طريقة رابليه .

ومع ذلك فإن أسلوبه الساخر يبدو من حين لآخر فى بعض فقرات من الكتاب بحيث يصعب على الناقد أن يقطع برأى فاصل فيما إذا كان الكتاب للمؤلف نفسه أم لكاتب آخر يتفنن فى تقليده . وربما يكون من العسير بل من المستحيل إزالة الغموض المحيط بهذا الموضوع .

فرانسوا رابليه الفنان :

من أهم ماتتميز به مؤلفات فرانسوا رابليه نزعتان : هما النزعة الإنسانية ونزعة حب الطبيعة .

أما نزعته الإنسانية فتتجه إلى تقدير الإنسان ومنحه الثقة المطلقة . إن هذا الإنسان الذى جعلت منه الكنيسة فى العصور الوسطى آلة صماء لترديد التعاليم الدينية عن ظهر قلب دون وعى أو إدراك صحيح لروحها الحق ومقصدها السليم ، والذى لم توله هذه الكنيسة أى قسط من الثقة يستطيع أن يصل إلى مستوى رفيع من

الكفاية إذا أحسن تعليمه وتثقيفه ، ويتخذ رابليه من نفسه مثلا فى هذا المجال . فلقد كان كما رأيناه محباً للعلم مشغوفاً به لا يكل ولا يمل من التحصيل والقراءة . فالإنسان ينبغى أن يكون غوراً للعلم ، وهو يستطيع أن يصل إلى الحقيقة المعنوية بدراسة أفلاطون وإلى الحقيقة القانونية بدراسة القانون الرومانى ، وإلى الحقيقة الدينية بدراسة نصوص الإنجيل عن قرب ، وإلى الحقيقة العلمية بدراسة الطب والفلك والرياضيات والطبيعيات. فإذا ما بلغ الإنسان هذا المستوى العلمى الرفيع فقد أصبح إنساناً كاملا جديراً بالتقدير والثقة التامة .

أما حبه للطبيعة فقد كان كذلك نوعاً من الثورة ضد تعصب الكنيسة وجمودها فى العصور الوسطى . فلقد كانت تمارس سلطة قاهرة للإنسان جسماً وروحاً ولذا فقد نادى رابليه بتحرر الجسم والروح معاً ، وساعدته دراسته للطب وممارسته له على الإعجاب بجسم الإنسان ودقة نظامه واعتبر ذلك النظام الدقيق جزءاً من نظام الكون ودقته . ولذا فقد كرس رابليه جانباً كبيراً من مؤلفاته لدراسة الحياة البدنية للإنسان وغذائه ووظائفه الطبيعية ، ونادى بمنح الجسم الحرية التامة فى الحركة وتقويته بالرياضة البدنية والعناية بالقواعد الصحية . وجميع الآراء التى يعبر عنها فى هذا الصدد تعتبر من أحدث آراء علم الصحة الحديث .

أما من الناحية الروحية فقد نادى رابليه بمنح الإنسان الحرية التامة فى التصرف . فقد دلته تجربته الخاصة فى نفسه على أن الإنسان خير بطبيعته جدير بكل ثقة . والإنسان العادى إذا منح الحرية التامة أحسن استغلالها دون أى تفريط أو إفراط . إن الطبيعة التى أنجبت الجمال والتناسق لا يمكن أن تكون مصدر شر أو أذى ولذا فالإنسان خيّر وينبغى منحه الثقة التامة والحرية المطلقة . وربما كانت تلك الثقة المطلقة والحرية الخالصة من كل قيد التى يمنحها رابليه للإنسان موضع جدال بين النقاد ، إلا أن ذلك لا يمنع من إقرار فضل هذا الفيلسوف فى أنه أول من أطلق تلك الصيحة التى ردت للإنسان اعتباره وكرامته وحريته بعد أن سلبتها منه العصور الوسطى لمدة طويلة . وهو فى ذلك أشبه بنبى يطلق أول صيحة تدعو إلى طريق الحق فى زمن كان الناس فيه يعمهون فى ظلمات الضلالة والجهل .

الواقعية فى أدب فرانسوا رابليه :

وإذا بحثنا مؤلفات رابليه من الناحية الأدبية وجدنا أنه من أوائل الكتاب الفرنسيين الواقعيين الذين يصفون الواقع بطريقة مجسمة دقيقة حية تجعل القارىء يعيش فيه بكل حواسه لا بخياله فقط ، كما أنه يملك فن إحياء الحوار حتى ليكاد القارىء يراه ويسمعه ويشارك فيه . ولذا فإن كتبه النابضة بالحياة تشد القارىء إليها شداً .

ورابليه كاتب ساخر مازح يعرف كيف يمزج الجد بالهزل والدعابة . ولا بد للقارىء من جانب كبير من اللباقة وسعة الإدراك ليفهم أن الهزل يخفى تحته كثيراً من الحقائق العميقة أو أنه وسيلة للتعمية يقصد بها إخفاء هجوم موجة ضد الحكومة أو الكنيسة أو آراء العصور الوسطى عموماً التى كان يفرضها القصر والسوربون على الناس فرضاً . ولم يكن من العسير اكتشاف ما وراء هذه التعمية وهذا ما جر على المؤلف المتاعب طيلة حياته واضطره إلى أن يحيا حياة مضطربة لا استقرار فيها ، كما أن هذا المزاح والسخرية كثيراً ما كانا يرتفعان إلى درجة الفكاهة العالية . وكم من فصل من مؤلفاته يعتبر فناً من فنون الفكاهة لم يفت موليير أن ينهل منها كما قدمنا . وتعتبر مؤلفاته من هذه الناحية صورة من شخصيته فلقد كان رابليه فى حياته يمزج بين الجد والهزل ولذا فقد تناولت الأساطير شخصيته فأحاطتها بكثير من القصص التى ربما ذهب بعضها إلى

حد المبالغة . ومما يذكر عنه دون تأكيد أن آخر كلمة قالها : « اسدلوا الستار ، لقد انتهت المهزلة » . ثم أطلق ضحكة ساخرة كانت خاتمة حياته .

ومما ساعد رابليه على بلوغ هذا المستوى الأدبى هو سعة اطلاعه وأسلوبه الفنى . فهو يملك من الكلمات مالا حصر له ويستطيع أن يجد من الأساليب مالم يصل إليه غيره ، كما أنه يملك القدرة على خلق كلمات وتعبيرات جديدة . وتعتبر جملته آية فى التناسق والكمال الفنى . إلا أن أسلوبه يختلط بكثير من الكلمات الشعبية التى ربما تهبط إلى مستوى السوقة أو إلى حد البذاءة . ولا ينبغى أن نقسو على ذلك الفنان بسبب ذلك فإن أحداً من قراء عصره لم يكن يدهش إذ يرى هذه الكنوز الأدبية والفلسفة تختلط بهذه التعبيرات والألفاظ النابية . ولم تكن تلك الحرية المفرطة فى التعبير تؤذى شعور أحد . ولذا فيجدر بنا أن نؤولها على أنها عادة من عادات العصر . وقد تولت المطابع فى عصرنا هذا نشر مؤلفات هذا الكاتب الكبير بعد أن نقحتها من هذه الألفاظ وتلك التعبيرات وإن كان معظم النقاد ما زالوا يفضلون نشر النصوص الأصلية على علاتها . ويرى لابروبير ، الكاتب الناقد الفرنسى الذى عاش فى أواخر القرن السابع عشر وصاحب كتاب « الطبائع » ، يرى إزاء هذه المتناقضات أن رابليه شخصية من أغرب الشخصيات فهو فى آن واحد عملاق قادر على أن يسحر السوقة والغوغاء كما يعتبر صحناً ممتازاً لأرفع الناس ذوقاً .

رابليه وعلم التربية الحديث :

إذا كانت مؤلفات رابليه قد عاشت حتى الآن وما زالت تقرأ بشغف فذلك لا لأنها تحوى قصصا مسلية عن حياة العمالقة جارجانتوا وابنه بانتا جرويل ومن حولهما ، وكيف عاشوا وماذا كانوا يأكلون وكيف وصلوا إلى تثقيف أنفسهم والمحافظة على صحة أبدانهم ، فحسب ، وإنما لأنها تعتبر أول مرجع لعلم التربية الحديث ، كما يعتبر رابليه من الرواد الأوائل لهذا العلم الذى يزداد كل يوم أهمية فى عصرنا هذا . وهو أول من نادى ، فى منهج تعليم العملاق جارجانتوا ثم ابنه بانتا جرويل ، بأن يتم هذا التعليم فى جو من الحرية التامة دون أى إكراه أو ضغط ، كما كان أول من وضع برنامجا منظما دقيقا يسير عليه التلميذ دقيقة بدقيقة فيتم تثقيفه بطريقة كاملة دون أن يشعر هو بأى ملل ولا إجهاد ودون أن تضيع لحظة من وقته هباء . وينتهز رابليه هذه الفرصة فيسخر من منهج التعليم الذى تبعهُ هو وأبناء جيله والذى كان يطبق على التلاميذ بالقوة . فقد بدأ جارجانتوا تعليمه على أيدى علماء اللاهوت فتعلم الحروف الأبجدية عن ظهر قلب فى خمس سنوات وثلاثة أشهر ، ثم حفظ بعض كتب متن اللغة والقواعد باللغة اللاتينية فى ثلاثة عشر عاماً وستة أشهر وأسبوعين . ثم كتابا آخر فى قواعد اللغة اللاتينية مع بعض الشروح والمتون فى ثمانية عشر عاماً وأحد عشر شهراً ، واستوعبه تماماً لدرجة أنه كان يستطيع تلاوته عن ظهر قلب تلاوة معكوسة من الآخر إلى الأول . ثم حفظ التأريخ الشعبى فى ستة عشر عاماً وشهرين وأخيراً حفظ طائفة من كتب البلاغة وكتبا أخرى على شاكلتها .

وهكذا يعطينا رابليه فى ذلك القالب التهكمى الساخر فكرة واضحة عن منهج الدراسة الذى كان متبعا فى عصره . وبعد ذلك يعد للتلميذ جارجانتوا منهجا آخر صحيحا سليما يجعل منه إنساناً صالحا . ولنقارن فى النصين التاليين بين الطريقة التى كان يسير عليها جارجانتوا فى دراسته على أيدى علماء

اللاهوت ثم الطريقة الصحيحة التى أعدها له مدرسه بونوقراط الذى يعبر عن آراء رابليه نفسه .

والنص الأول ، وتلك ترجمة له ، يعطينا فكرة عن الطريقة السقيمة العقيمة التى كان يسير عليها جارجانتوا والتى خلقت منه إنسانا مغروراً تافها :
« لقد أمر بونوقراط فى أول الأمر أن يسير جارجانتوا على الطريقة التى اعتاد عليها ليرى كيف استطاع أساتذته القدامى أن يجعلوا منه إنسانا غبيا وتافها وجاهلا فى كل هذا الوقت الطويل . وعلى ذلك فقد نظم وقته بحيث يستيقظ ما بين الساعة الثامنة والتاسعة سواء أكان النهار قد طلع أم لا . هكذا أمر أساتذته القدامى مستندين فى ذلك إلى قول داود : « من العبث أن تستيقظ قبل طلوع النهار » (١)

ثم يأخذ يتلوى ويتثنى ويشد أطرافه فى فراشه حتى يساعد أعضاء جسمه على تأدية وظائفها . ثم يرتدى ملابسه حسب الفصل إلا أنه لا يجد غضاضة فى لبس رداء طويل عريض مبطن بفراء الثعالب . ثم يمشط شعره بمشط «ألمان» (٢) بأن يمسك به بأصابعه الأربعة وإبهامه لأن أساتذته قالوا له إن كل طريقة أخرى لتمشيط الشعر والاغتسال والنظافة هى مضيعة لوقته فى هذا العالم » .

« ثم يأخذ فى البصق والتقيء والسعال والصياح والعطس . وبعد ذلك يتناول إفطاره ليتغلب على الهواء الفاسد بالأطعمة الآتية : المقليات والمشويات وفخذ الخنزير ولحم الجدى المحمر والحساء الدسم الذى يتناوله الرهبان فى السادسة صباحاً . ولما قال له مدرسه بونوقراط إنه لم يكن ينبغى له أن يفعل كل ذلك قبل أن يؤدى بعض التمرينات لدى مغادرته الفراش أجاب جارجانتوا قائلا :

« ماذا ! ألم أقم بما يكفى من التمرينات ؟ لقد انثنيت ست أو سبع مرات فى الفراش قبل أن أنهض . ألا يكفى ذلك ؟ إن البابا الكسندر كان يفعل ذلك بناء على نصيحة طبيبه اليهودى ، وإنه عاش حتى الموت رغم أنف حساده . ولقد عودنى أساتذتى الأوائل على ذلك وقالوا لى إن الإفطار يقوى الذاكرة . لذا فقد كانوا يبدأون هم يومهم بالشراب . وإنى أجد صحتى طيبة جداً وشهيتى فى وجبة الغداء أقوى . ولقد قال لى الأستاذ توبال (وهو أول الليسانس من جامعة باريس) إن الفائدة ليست فى الجرى بسرعة ولكن فى البدء مبكراً ، ولذا فإن صحة الإنسانية لاتكون بالشراب كثيرا كثيرا كالكلاب وإنما بالشراب فى الصباح . ومن هنا كان هذا البيت من الشعر :

إن الصحو فى الصباح ليس هو السعادة — الشراب فى الصباح أفضل .

« وبعد أن يتناول إفطاره على أتم وجه يذهب إلى الكنيسة حيث يحضرون له فى سلة كبيرة كتاب تفسير الإنجيل وقد أحيط بلفائف كثيرة فثقل وزنه بسبب هذه اللفائف حتى أصبح أحد عشر قنطاراً وستة أرطال قل عن ذلك أو زاد . وهناك يستمع إلى نحو ستة وعشرين أو ثلاثين قداساً . وفى هذا الوقت يأتى إليه قارىء الصلوات وقد تعثر فى معطف ثقيل ويخفف عنه التعب بالشراب المضاف إليه النبيذ . وفى الوقت نفسه الذى يشرب فيه يترنم بكل هذه الصلوات وبدقة لاتسقط معها منه أية

---

(١) آية للترتيل ١٢٧ استشهد بها رابليه استشهاداً حرفياً كى يقول « لا تقربوا الصلاة » ولا يذكر بقية الآية . وتتمتها التى لم يذكرها رابليه هى : إذا كان الرب لا يبارك جهودك » .

(١) ألمان أستاذ من أساتذة السوربون الذين يعتنقون طريقة القسر والجمود .

قطرة على الأرض . وحين يهم بالخروج من الكنيسة يحضرون له على عربة يجرها ثور مسبحة القديس كلوديس التى كانت كل حبة فيها فى حجم رأس الإنسان فيتلو عليها التسابيح أكثر من ست عشرة مرة وهو يتنزه فى الأروقة والحدائق ، ثم يأخذ فى الاستذكار نحو نصف ساعة على الأكثر وعيناه مستقرتان فوق كتابه ولكن كما يقول الكاتب الساخر (١) روحه فى المطبخ .

« ثم يجلس إلى المائدة . ولما كان بطبيعته بطيئا فى إثارة شهيته فهو يبدأ وجبته بعدد مضروب فى اثنى عشر من أفخاذ الخنازير وألسنة الثيران المدخنة والبطارخ وغيرها قبل أن يبدأ فى تعاطى النبيذ . وفى هذا الوقت يأخذ أربعة من القائمين على خدمته بإلقاء الخردل (المستردة) فى فمه بالجاروف الواحد تلو الآخر ، ثم يشرب جرعة هائلة من النبيذ الأبيض . وبعد ذلك يأكل حسب الموسم اللحم كما تسمح له شهيته ، ثم يكف عن الأكل حينما تبدأ بطنه تؤلمه . أما الشراب فليس له نهاية ولا قاعدة لأنه يقول إن المرء يكف عن الشراب حينما يرتفع الفلين الذى يتكون منه نعل مداسه إلى نصف قدم » (قصة جارجانتوا الفصل الحادى والعشرين) .

بهذه المبالغات التى يخلقها رابليه فى دنيا العمالقة التى تسود كتابه «جارجانتوا» يقصد كما قلنا إلى مهاجمة منهج التربية الذى طبق عليه والذى كان مازال يطبق فى المدارس وفى الجامعة . ثم بعد ذلك يغير بيروقراط مربى جارجانتوا منهج التربية المعيب هذا ويرسم منهجا آخر صحيحا سليما كما تبينه لنا الصفحة التالية المترجمة عن الفصل الثالث عشر «لجارجانتوا» .

« وبعد ذلك وضع له خطة للدراسة تكفل له عدم ضياع دقيقة واحدة من اليوم . وهكذا كان يقضى كل وقته فى الدرس وطلب العلم : كان جارجانتوا يستيقظ فى الرابعة صباحا . وبينما كان القائمون على خدمته يدلكون له جسمه كان قارئه يتلو عليه بعض صفحات من الكتاب المقدس بصوت جهورى واضح ونطق صحيح سليم جدير بما يقرأ . وقد عهد بذلك إلى تابع شاب من مدينة باشيه (بالقرب من شيفرن حيث ولد رابليه) . ويدعى هذا التابع : أناخبوست (وتعنى باليونانية القارىء) . ومن أغراض هذا الدرس أن يتعلم تبجيل الله وعبادته والصلاة لله مرات عديدة إذ أن هذه القراءة كانت تبين جلاله وأحكامه السديدة الرائعة .

وبعد ذلك يرتدى ملابسه ويمشط شعره ويلبس غطاء رأسه ويتعطر . وفى خلال هذا الوقت تعاد عليه دروس اليوم السابق ، وكان هو نفسه يلقيها عن ظهر قلب ويطبقها على حياته العملية والإنسانية . وكان هذا الدرس يمتد أحيانا ساعتين أو ثلاث ساعات ، ولكن كان عادة يتوقف حينما يتم ارتداء ملابسه ، ثم يأخذ مدرسه فى القراءة له طوال ساعات ثلاث .

« وبعد ذلك يخرج إلى الهواء الطلق وهو يبدى دائما ما يعن له من ملاحظات حول دروسه ، ثم يبدأ فى لعب الكرة أو الكرة الثالوثية (التى يلعبها فريق مكون من ثلاثة لاعبين فى شكل مثلث) وهكذا يروض جسمه كما سبق له أن راض نفسه . وكانت الحرية المطلقة هى التى تسود اللعب فكانوا يكفون عنه حينما يطيب لهم ذلك . وكان هذا التوقف يحدث حينما يتصببون عرقا أو يدركهم التعب . وحينما يفرغون من تجفيف أجسامهم وتدليكها بعناية يغيرون ملابسهم

(١) يقصد به تيرانس فى ملهاة الخصى .

ويبدأون نزهة لطيفة قبل أن يذهبوا لاستطلاع ما إذا كان الغداء قد أعد . وهناك فى انتظار الغداء يأخذون فى ترديد بعض مقتطفات من الدرس فى وضوح وفصاحة .

« وفى هذا الوقت تكون الشهية قد فتحت فيجلسون إلى المائدة طبقا لقواعد آداب الأكل . وفى بداية الوجبة تقرأ بعض القصص المسلية عن المغامرات القديمة يشرب خلالها جارجانتوا النبيذ الفاتح للشهية . وبعد ذلك إما أن يواصل القراءة أو يسمرون معاً فى مرح حسب مايتراءى لهم . ويكون الحديث فى الأشهر الأولى عن طبيعة المواد الغذائية التى تقدم لهم وخصائصها من خبز ونبيذ وماء ملح ولحم وسمك وفاكهة وخضروات وجذور وعن طريقة إعدادها . وكان هذا يؤدى فى وقت قصير إلى الإلمام بعلماء اليونان والرومان مثل بلين وأثينيه وديوسكوريد وجالينوس وأرسطو وغيرهم . وخلال هذا الحديث كثيرا ما يؤتى إليهم على المائدة بكتب العلماء السابقين هؤلاء للتأكد مما يتناقشون فيه . ولقد وعى جارجانتوا فى ذاكرته كل ما قيل فى هذا الشأن حتى إنه لم يكن ثمة طبيب يعرف نصف ما يعرف . وبعد ذلك يتحدثون فيما قرءوا من دروس الصباح ويختمون الوجبة ببعض مربى السفرجل وينظفون أسنانهم بالسواك ويغسلون أيديهم وأعينهم بالماء النقى ويحمدون الله بأن يوجهوا إليه بعض الترنيمات فى مدح عظمته وجلاله وقدسيته .

ثم يأتون بأوراق اللعب لا لمجرد اللهو بل لتعلم آلاف من اللعب ووسائل التسلية الجديدة المبنية كلها على الرياضيات . وبهذه الطريقة أحب جارجانتوا علم الأعداد حتى إنه فى كل يوم بعد الغداء والعشاء كان يقضى وقته فى هذه المتع حتى اعتاد أوراق اللعب والرياضيات . ولقد وصل علمه فى هذه العلوم سواء من الناحية النظرية أو التطبيقية حداً جعل معه أكبر العلماء يعترفون بأنهم بالقياس إليه يعتبرون لايعرفون إلا الألمانية العويصة .

« ولقد أتقن جارجانتوا جميع فروع الرياضيات من هندسة وفلك وموسيقى . وذلك لأنه كان يقضى فترة الهضم فى اللعب على جميع الآلات الموسيقية والتدريب على الأشكال الهندسية ، بل أنه وصل إلى ممارسة القوانين الفلكية . »

نرى من هذا النص أن رابليه قد خط لتلميذه منهجا دراسيا منظماً . فهو يبدأ يومه فى ساعة مبكرة وبقراءة بعض صفحات من الكتاب المقدس بلهجة صحيحة رصينة تمكنه من التعمق فيه وملء نفسه بالإيمان بجلال الله وقدسيته . ثم يأخذ فى تكرار دروس الأمس فيؤدى التكرار إلى أن يحفظها عن ظهر قلب . وبعد ذلك يقضى مع مدرسه بعض ساعات فى القراءة والدرس . ولما يدركه التعب يخرج إلى الهواء الطلق لممارسة ماشاء من رياضة فينشط جسمه وذهنه إلا أنه يكف عن ذلك إذا شعر بالتعب أو بعدم الميل إلى الاستمرار فى اللعب . ثم يتناول طعامه ويستفيد من الوقت الذى يقضيه أثناء الطعام بأن يتناقش وأستاذه حول تركيب مايقدم إليه من ألوان الطعام وما تحويه من مواد غذائية وأثرها فى الصحة العامة ، ثم يقضى فترة الراحة بعد الغداء فى لعب الورق بطريقة جديدة تؤدى إلى توسيع مداركه الرياضية ، وبعد ذلك يستأنف دراسته . وهكذا لايضيع من وقته طوال اليوم دقيقة واحدة ، وفى الوقت نفسه لا يشعر هو بالتعب أو الملل أو الإجهاد .

وهذه الآراء التربوية كلها ، وإن كانت تبدو لنا اليوم عادية ومكررة ، إلا أنها كانت جديدة كل الجدة

فى عصر رابليه بل واعتبرت هجوماً جريئاً على الطريقة المدرسية الكنيسية والجامعية المتبعة فى عصره . وأهم هذه الأفكار فكرة الحرية المطلقة التى ينادى بأن تمنح للطالب . فهو يرى أن الطالب ينبغى أن يدرس فى جو من الحرية لا قسر فيه ولا إكراه وأنه لن يستغل هذه الحرية استغلالا سيئا أو يسىء التصرف فيها لأنه ، أى رابليه ، يوجه كلامه إلى المتزنين من الناس . أما الطالب الذى يسىء إدراك معنى هذه الحرية ويفرط فى استخدامها فهو إنسان غير متزن وغير عادى التكوين فهو يسقطه من حسابه ولا يقصده بأى حديث . وغنى عن الذكر أن الحرية هى القاعدة التى يعتمد عليها علم التربية الحديث ولذا فيعتبر الفرنسيون رابليه المرجع الأول لعلم التربية .

أما عن فكرة أن المرء ينبغى أن يكون غورا للعلم لايرتوى منه أبداً وأنه يتخذ من نفسه فى هذا السبيل مثالا يحتذى ، فيرى بعض النقاد أن رابليه يبالغ فى فكرته هذه وأن معاصره المفكر مونتينى كان أبعد منه نظرا حينما نادى بأن يكون هدف التربويين هو خلق رءوس حسنة الإعداد لا محشورة حشراً بالمعلومات ، ونجد أنه ليس ثمة تناقض على الإطلاق بين رابليه ومونتينى فى هذا الصدد إذ أن رابليه كما رأينا فى النص السابق لايرى الاعتماد المطلق على الذاكرة ولا ينادى بالحفظ عن ظهر قلب ولا يحشو الرأس بما هى راغبة عنه من معلوماته . فالدرس ينبغى أن يكون متعة للدارس وأن يفهمه ويهضمه هضماً تاماً . أما إذا وصلت الذاكرة إلى حفظه عن ظهر قلب من كثرة تكراره ومناقشته فلا ضير فى ذلك . والذاكرة مسجل حساس لاسيما فى الصغر وينبغى الاستفادة من طاقتها فى تلقين التلميذ مالاينبغى أن ينسى من معلومات دون إرهاق أو إجهاد .

وهذه أفكار صحيحة سليمة ينبغى أن تكون موضع اهتمام التربويين فى العصر الحديث الذين ربما مالوا بعض الشىء إلى إهمال شأن هذا المسجل الحساس وهو الذاكرة . ومن جهة أخرى فإن العلم ، لاسيما فى عصرنا هذا لاينى يتسع ويتشعب ، وينبغى للإنسان الراغب فى الثقافة الصحيحة الكاملة أن ينهل قدراً معقولا من هذا العلم الذى لانهاية له ولذا فإن رابليه لم يكن على ضلال حين رأى أن الإنسان يجب أن يكون غوراً لاينتهى من العلم . والرأس التى تعد طبقا لنظرية رابليه التربوية لايمكن وصفها بأنها محشورة حشراً بالمعلومات . ولذا فليس ثمة تناقض بينه وبين مونتينى فى هذا الشأن .

الآراء الدينية لفرانسوا رابليه :

من أهم آراء فرانسوا رابليه التى أثرت تأثيراً مباشراً فى أبناء جيله وفى الأجيال التى بعده هى آراؤه الدينية التى كانت تهدف إلى تحرير الدين من استعباد علماء اللاهوت وتخليصه من الخرافات والدجل والتفسيرات الخاطئة المتطرفة . ولذا فقد نادى أولا بوجوب اللجوء إلى النص الأصلى للكتاب المقدس قبل اللجوء إلى أية تفسيرات من قبل الكنيسة . ثم نادى بإعداد القساوسة والرهبان إعداداً سليما على أسس جديدة مخالفة تماماً للأسس التى كانت تطبق فى إعداد القساوسة والرهبان حتى ذلك العهد . وكما نادى رابليه بالحرية المطلقة فى التعليم عموماً فقد نادى بالحرية المطلقة بالنسبة لتعليم القساوسة والرهبان . وهذه الحرية مبنية على نفس فكرته فى إعداد المواطن الصالح ، وهى أن الإنسان الطبيعى سليم التفكير إذا منح الحرية كاملة غير منقوصة فإنه يستعملها فى غير ما إفراط أو تفريط . ومن بين مظاهر هذه الحرية عدم فصل الرهبان عن الراهبات فى الأديرة وخلق

حياة مشتركة طبيعية بين الجنسين داخلها . وكان من رأيه أن هذا الاختلاط سوف يأتى بأطيب الثمرات لأنه سوف يخلق بين الجنسين صداقات سليمة متينة وربما أدى إلى بعض الزيجات السعيدة بين الرهبان والراهبات . وكانت هذه من أفكاره الجريئة فهو يرى أن منع الزواج عن القساوسة والرهبان يضطرهم إلى الجنوح عن الطريق الطبيعى والصحيح فى الحياة . ولكى يجسد رابليه لقرائه هذه الأفكار الجريئة ويبين صحتها فى وضوح خلق فى الفصل السابع والخمسين من كتابه «جارجانتوا» ديرا أطلق عليه اسم دير «تيليم» . ومعنى كلمة تيليم باليونانية الإرادة الحرة . وهذا الدير يختلف تماماً عن غيره من الأديرة فهو غير محاط بأى سور خارجى كما أنه خلو تماماً من أية أجراس أو ساعات ولا تسير فيه الأمور إلا طبقا للذوق العام والتفاهم التام بين الأعضاء . وهو يستقبل النساء من سن العاشرة حتى الخامسة عشرة والرجال من سن الثانية عشرة حتى الثامنة عشرة . وهو لايستقبل إلا فتيانا أو فتيات حسنى الخلقة ومن عناصر طيبة وتعليم متين . وفى هذا الدير يحيا الرهبان حياة مترفة مرفهة خالية من كل قيود . وهذا الدير كما يصفه رابليه فى روايته آية من آيات الفن والجمال والترف . وغنى عن الذكر أن هذا الترف بعيد كل البعد عن الدين وكذلك الشرط الخاص بجمال الخلقة بالنسبة للرهبان ، ولكن رابليه كان فى ذلك مسحوراً بترف القصور الملكية وغيرها فى عصره .

والقاعدة العامة التى تسير عليها الحياة فى هذا الدير تختلف كما قلنا تماماً عن التعنت الذى كان يسود حياة الأديرة فى ذلك الحين . فعلى باب دير تيليم نجد لافتة تحظر الدخول على المنافقين ورجال القضاء والمرابين ، ولا يسمح بالدخول إلا «للفرسان النبلاء وسيدات الطبقة الراقية زهور الجمال وذوات الوجوه الملائكية ذوات المظهر التقى العاقل» وكذلك المسيحيين الإنجيليين . ثم تسترسل اللافتة قائلة : « ادخلوا حتى نؤسس هنا العقيدة العميقة التى نفحم بها أعداد الكلمة المقدسة » . ويفهم من هذه اللافتة إن تصدر المؤلف هو العودة بالمسيحية إلى نصوصها الأصلية وتخليص الطبيعة الإنسانية لدى الرهبان من أى كبت ، وهذان هما الهدفان الرئيسيان لعصر النهضة . ويرى رابليه أن ذلك ممكن التحقيق إن لم يكن بالنسبة للناس جميعا فعلى الأقل بالنسبة للصفوة المختارة من ذوى النفوس الجميلة التى تزداد جمالا وتألقا فى جو الحرية المطلقة هذا . ونسوق فيما يلى ترجمة لجزء مشهور من هذا الفصل :

« افعل ماشئت»

لقد كانت حياتهم كلها تستخدم لاطبقا للقوانين واللوائح والقواعد بل طبقا لإرادتهم وحريتهم الخالصة. فكانوا ينهضون من فراشهم كما يحلو لهم ، ويشربون ويأكلون ويعملون وينامون حينما تكون لديهم الرغبة فى ذلك . لم يكن أحد يوقظهم ولا أحد يضطرهم إلى الشرب أو الأكل أو إلى إتيان أى عمل . هكذا قرر جارجانتوا . وكانت القاعدة السائدة بينهم هى هذه الكلمة :

افعل ماشئت

ذلك لأن الأحرار من الناس حسنى المولد والثقافة حينما يعيشون فى صحبة الأخيار فإن لهم غريزة طبيعية وحاسة تدفعهم دائما إلى الأعمال الفاضلة وتبعدهم عن المنكر الذى كانوا يسمونه الشرف . وهؤلاء حينما نرهقهم بالإكراه والعبودية فإننا نبعدهم عن العواطف النبيلة التى تدفعهم نحوها الفضيلة الصريحة ذلك لأننا

نحب دائما أن نأتى ما يمنع عنا ونتوق دائماً إلى مايحرم علينا .

وبهذه الحرية يدخلون فى تنافس حميد فيحققون مايرغب أى فرد فيهم فى عمله . فإذا قال أحدهم أو إحداهن «لنشرب» شرب الجميع . وإذا قال أحدهم : «لنلعب» لعب الجميع . وإذا قال أحدهم :«لنخرج إلى الحقول» ذهبوا جميعا . وإذا تعلق الأمر بالقنص أو الصيد ذهبت السيدات وهن ممتطيات ظهور فرسات جميلات مطهمات ، وقد ارتدين الملابس الفاخرة والقفازات الجميلة وأمسكت كل منهن بطير صغير من طيور الصيد . أما الرجال فيحملون بقية الطيور .

ولقد حصلوا جميعا على ثقافة متينة نبيلة حتى إن لم يكن بينهم من لايقرأ ويكتب ويغنى ويلعب على الآلات الموسيقية ويتحدث خمس أو ست لغات ويكتبها نثراً وشعراً . ولم ير الناس من قبل فرساناً أكثر تقوى من هؤلاء ولا أكثر فنا فى معاملة النساء . أو مهارة فى كل مايؤتى على الأقدام أو على صهوة الخيل ولا أكثر قوة وحركة ومهارة فى استخدام السلاح من هؤلاء ، كما لم ير الناس من قبل سيدات أكثر أناقة ومهارة فى الفنون النسوية ولا أكثر أدباً وحرية من هؤلاء السيدات . ولهذا السبب فعندما كان يحين الوقت لأحد منهم لمغادرة الدير سواء بناء على طلب أهله أو لسبب آخر فإنه كان يصطحب معه من تكون من السيدات قد اختارته إعجابا بتقواه ويتزوجان . وكما عاشا حياة طيبة فى تيليم فى جو من التقوى والصداقة فإنهما كانا يواصلان تلك الحياة فى عش الزواج . وكانا يظلان متحابين حتى آخر أيامهما كما لو كانا فى أول يوم من أيام الزواج » .

وهكذا نرى أن فرانسوا رابليه قد نادى بالحرية التامة للرهبان والراهبات وإباحة الزواج بينهما وإعدادهما إعداداً سليماً وتعليمهما كل مايتعلمه الناس خارج الأديرة من علوم دنيوية فضلا عن العلوم الدينية .

لماذا تعتبر مؤلفات فرانسوا رابليه من التراث الانسانى ؟

يتبين من هذا البحث أهمية مؤلفات فرانسوا رابليه ، وقصة جارجانتوا وبانتا جرويل بصفة خاصة بالنسبة للتراث الانسانى . فهى تعتبر أصل علم التربية الحديث والداعية للكثير من الأفكار الإنسانية التحررية التى يدين بها المجتمع الإنسانى الحديث لمثل فرانسوا رابليه من كبار المفكرين ورواد التقدم البشرى .